المنهج الخطابي الاستشراقي في القضايا الانسية التاريخيةجدلية الفهم والممارسة

د. نعيمة رحماني أ.د. شعيب مقنونيف

جامعة تلمسان- الجزائر

الملخص

إذا انطلقنا من مسلمة مفادها ان المجتمعات الغربية تفسر الظواهر الكونية ماديا وتخضعها للمنهج التجريبي، ولا تؤمن بالغيبيات، فإنها ستُلقى صعوبة في دراسة تاريخ الحضارة الاسلامية ونصوصها الدّينية بخلفية ثقافية تنفي وتشلّ ما هو روحاني وتبجّل كلّ ما هو مادي.

فهل يمكن في هذا المقام تطبيق المناهج المادية التي استحدثتها العقول الغربية التي لا تؤمن بالغيبيات بغية دراسة تاريخ وحضارة مجتمعات إسلامية تؤمن بها؟ وكيف يمكن اخضاع ما هو غيبي لمنهج تجريبي؟ وكيف ستكون نتائج هذه الدراسات؛ صحيحة مطابقة للمظان الاسلامية أم خاطئة ترفض الاعتراف بها وتصديق المعرفة الحقيقة؟ وهل ستوجه النتائج المتوصل اليها لخدمة العلم والمعرفة ام ستوجه ايديولوجيا لخدمة انساق غربية مضمرة؟ وكيف تعبر الذات الاستشراقية خطابيا وممارساتيا؟ سنحاول في هذا المقال فهم تلك الممارسات من خلال عرض بعض القضايا الانسية الممنهجة استشراقيا.

Orientalist discourse on historical issues of humanity Dialectical understanding and practice

Dr. Naima Rahmani Prof. Dr. Chouaib Magnounif

University of Tlemcen

Abstract

If westart from the idea that Western societies do not believe in supernaturalism, they will find it difficult to study the history of Islamic, religious and cultural civilization of texts, and they paralyze what is spiritual and worship all that is equipment.

Is it possible to study the history and culture of Islamic societies by Western minds who do not believe in supernaturalism? And how can one submit what is a demonstration of a metaphysical approach? And how will the results of these studies be, do they refuse to recognize eit and to ratify true knowledge? Will the results reach the service of science and knowledge, or will they guide an ideology at the service of Western systems? In this article, we will try to understand these practices by presenting some of the Orientalist systemic problems.

المقدمة

ان تحصيل الوقائع التاريخية الاسلامية والقضايا الغيبية الاعتقادية كمسألة نزول الوحي والسيرة النبوية وغيرها بمقاربات ومناهج استشراقية غربية مادية تنفي الجانب الروحاني لهي من المفارقات التي تتطلب الوقوف عندها، لان الخلفية الثقافية والمرجعية والمجال المعرفي التداولي للدارس المستشرق أسير بيئته الثقافية والايديولوجية ستجعله يستنطق النصوص مستعينا بأيديولوجياته الجاهزة؛ والتي ستترك بالغ الأثر في الخطابات الاستشراقية حول التراث الاسلامي.

بداية نستحضر قول الراهب الفرنسي بطرس المبجل Pierre le vénérable (١٠٩٢م-١١٥٦م) الذي ترجم القرآن واعتبره هرطقة مسيحية:" ان الاسلام لا يشكل خطرا عسكريا مباشرا ولكنه ...خطورة فكرية لا يستهان بها، لذا فلا بد من التعرف اليه أولا، ثم مكافحته ثانيا... فاذا لم يكن بهذا الطريق إعادة المسلمين إلى المسيحيّة الصحيحة، فلا اقل من ان يستفيد العلماء المسيحيون من عملنا في مجال دعم ايمان المسيحيين السذج.[١] ونستحضر أيضا ما ذكره الباحث محمد قدور تاج على لسان المستشرق الفرنسي الميسيو كيمون قائلا: "ان الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك ذريعا بل هو مرض مروع وشلل عام وجنون ذهني يبعث الانسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه إلا ليسفك الدماء ويدمن معاقرة الخمور ويجمع في القبائح، وما قبر محمد إلا عمود كهربائي يبث الجنون في رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الاتيان بمظاهر الصرع، الهيستيريا والذهول العقلي، وتكرار لفظ الله الله الى ما لانهاية...."[٢] لنستشف في خلال هذين القولين التطرف الشديد في تمرير الخطابات للآخر القارئ الغربي حول الدين الإسلامي ونبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم)، كما ويعلن الراهب الفرنسي بطرس المبجل الخطة المتبعة لهدم أسس النسق الديني الإسلامي، والذي أجمل أهم محاورها في التعرف على الاسلام كخطوة اولى ثم مكافحته كخطوة ثانية بغية إشاعة المسيحية. وقد اكتمل فعلا التعرف من قبلهم على أسس النسق الإسلامي، ومن ثم باشروا بمحاربته مستعينين بالنسق الديني والنسق السياسي الاستعماري والنسق العلمي الغربي. وسنركز في هذا المقام على

دراسة النسق العلمي الغربي الذي سخّر المناهج (العلمية) الغربية لهدم النسق الإسلامي. يحضرنا في هذا الصدد قول الباحث إبراهيم عوض «...هالني ما يسوده من انحراف عن المنهج العلمي، وعداوة للإسلام ورسوله وكتابه وعقائده وشرائعه، ورغبة حارقة في تلطيخ كل شيء فيه، ولم أجد ... من تحدث عن ديننا ورسولنا وقرآننا بشيء من رحابة الصدر وسعة الافق، بل دائما ما تقدّم أسوأ التفسيرات، وتعزى الاعمال العظيمة إلى احط البواعث، وتنثر بذور التّشكيك في مصادر التاريخ الإسلاميّ، اللهم الا إذا كان فيها ما يمكن أو يوظف للإساءة إلى الاسلام وتاريخه واعلامه، وهو امر بالغ الغرابة."[٣] بل نقول لهو أمر لا يدعو الى التحيّر فقول الراهب المخطط الفرنسي لهو خير دليل شهد به شاهد منهم.

سوف ننطلق في دراستنا من نقطة الانحراف عن المنهج العلمي بغية حصر اهم المناهج التي درست الإسلام بعقول غربية، ونحن في هذا المقام لا نحاول عرض مناهج الدراسات الاستشراقية عرضا يأخذ بعين الاعتبار العامل الزمني لظهورها بقدر رغبتنا في عرضها بحسب ارتباطها بالقضايا التي سنطرحها، ويعود الحافز في ذلك الى تشابه القضايا واختلاف المناهج.

نستهل طرحنا اذن بقول المستشرق الالماني رودي بارثBarth Rodi (١٩٠١م- ١٩٨٣م): " نحن معشر المستشرقين، عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربيّة والاسلاميّة، لا نقوم بها فقط كي نبرهن على صنعة العالم العربي والإسلاميّ، .....نحن لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه دون ان نمعن فيه النظر، بل نقيم وزنا فحسب لما يثبت امام النقد التاريخي أو يبدو وكانه يثبت امامه، ونحن في هذا نطبق على الاسلام وتاريخه وعلى المؤلفات العربيّة التي نشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الغرب عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن."[٤] المتمعن في هذا القول يلمح تأكيد الباحث على تطبيق المنهج العلمي الرصين في دراسة التاريخ الاسلامي، والمتمثل في البحث والتمحيص والتدقيق والعودة الى الاصل والنقد وغيره. ولكنه في الوقت ذاته ألقى الحجة على نفسه، إذ يقول انهم

يطبّقون على الاسلام وتاريخه المعيار النقدي نفسه الذي يطبقونه على تاريخ الغرب، رغم ان منطق تفكيرهم يختلف عن منطق تفكير المسلمين، فهم يؤمنون بالماديات ولا يؤمنون بالغيبيات؛ فكيف سيدرسون عالمان مختلفان بنفس المنهج؟ وبخلفية ثقافية مناقضة للخلفية الثقافية المدروسة؟

لا يمكننا في هذا المقام حشد كل الأعمال الاسشتراقية في سلّة واحدة، ولا ننكر ولا نجحد البتّة جهود المستشرقين خاصة المنتسبين للمدرسة الاستشراقية الألمانية التي تختلف عن المدرسة الاستشراقية الفرنسية والانجليزية والهولندية في الأهداف والغايات؛ ومن المعروف أنه المدرسة الألمانية لم تنتهج السياسات الاستعمارية التي انتهجتها المدارس الاخرى، حيث امتازت معظم اعمال باحثيها بالمنهجية العلمية الموضوعية، وبالدقة في تقديم المعلومات ودراستها، فكانوا يستعينون بالعلماء والاستاذة العرب كشيوخ الازهر وفي مقدمتهم الشيخ والفقيه المصري محمد عبده (١٨٤٩م–١٩٠٥م) وغيره، عكس المدارس الأخرى التي لم تستنجد بالعلماء العرب في دراساتها.[٥]كما أن المدرسة الألمانية لم تكن تحفل بإشاعة المسيحيّة بقدر اهتمامها وشغفها بالدّراسات الشّرقية القديمة والفنون والاثار الآداب والشعر والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والجبر والحساب والفلك والطب وغيرها؛ تلك العلوم التي تبتعد نوعا ما عن النسق الاستعماري، إذ انصب اهتمام جل المستشرقين الالمان حول حفظ التّراث الإسلاميّ في خلال جمع ونشر وفهرسة المخطوطات. ورغم ريادة المدرسة الالمانية في الجانب المنهجي إلا ان بعض أعمالهم لم ترق إلى المنهج العلمي الصحيح؛ حيث قال في هذا الصدد الاب المسيحي انستاس ماري الكرملي Anastas Mari Al–Karmali (١٨٦٦م–١٩٤٧م): "ان علم المستشرقين عرضة للنقد والتحقيق...ولابد ان يُنتقدوا الانتقاد الصحيح ليظهر الغثاء وينبذ، ويبلغ إلى صميم الحق فينبع، ولقد وجدنا هفوات لا تغتفر لهؤلاء المستشرقين من جميع الامم وفي جميع التصانيف..."[٦] تلك الهفوات كانت نتيجة تطبيق المناهج الغربية المادية بغية دراسة حضارة لامادية.

بعدما أوفينا للمدرسة الألمانية حقها واستثنيناها، نعود الى جزئية تطبيق المناهج الغربية التي استغلها المستشرقون احسن استغلال وتم تطويعها من اجل إثبات فرضياتهم واحكامهم المسبقة والبرهنة على صحتها (بأي سمة كانت حتى ولو عن طريق الاستناد إلى اضعف الدلائل)؛ نباشر مع **المنهج التاريخي** الذي يردّ الظواهر الفكرية الى اصولها الاولى، عن طريق جمع المعلومات والمعارف، ثم ترتيب الوقائع التاريخية والاجتماعية وتبويبها، واخيرا الاخبار عنها والتعريف بها.[٧] مع الاستناد إلى عناصر التاريخ الثلاثة وهي؛ الشّخصية، البيئة، والزمان.[٨]ولكن كيف تم استغلال هذا المنهج العلمي ليصبح اداة اديولوجية تخدم مصالح النسق الاستعماري؟

تجسدت منهجية فريق منهم في تطبيق المنهج التاريخي على أحداث التاريخ الاسلامي في خلال التركيز على جزئية إرجاع الظواهر الفكرية الى اصولها الأولى، فكانوا ينطلقون من فكرة مؤمنين بها قبل ان يتحرّوا عن صحتها، كما وكانوا يستندون إلى اي دليل يصب في قالب فكرتهم حتى وان كان ضعيفا ولا يؤخذ به عند المسلمين. وخير مثال على ذلك المستشرق الالماني كارل بروكلمان Carl Brockelmann (١٨٦٨م-١٩٥٦م) الذي طبق المنهج التاريخي على الاسلام وتتبّع تاريخ نشأته وتطوره وخلص في الأخير الى نتيجة انطلق اصلا منها وأثبتها بأي وسيلة مفادها أن الاسلام ما هو الا تطور لعبادات وثنية قديمة.[٩] ومن يقول الاسلام سيذكر لا محالة القرآن الكريم، وهو النقطة الاساس التي ركزت عليها منهجية المستشرقين، حيث ذكر المستشرق الدانمركي فرانس بوهل Frantz Buhl (١٨٥٠م-١٩٣٢م) انه لا يوجد في سورة الفاتحة أي شيء إسلامي خاص بل فيها الفاظ يهودية ونصرانية، ولم يعلل ما جاء به بل أغفله وانتقل إلى سرد موضوع آخر.[١٠] هكذا كان اسلوب المستشرقين؛ عرض سطحي للأفكار فقط دون استقصاء الحقيقة أو التقصي عنها. وبعد فترة من عرض تلك النتائج يُعاد ذكرها واستنتاجها كنوع من الرواسب الثقافية التي يؤمنون بها ولا يتخلون عنها، حيث ذهب المؤرخ اليهودي المعاصر شلومو دوفجويثين Shelmo DovGoiten (١٩٠٠م-١٩٨٥م)

إلى المحصّلة نفسها مجزما ان "الاسلام من صميم لحم وعضم اليهودية."[١١] لقد أطبق جل المستشرقين كلمتهم على ان مصدر الدين الاسلامي والقرآن هو اليهودية، أما المسيحية فلم يعتدوا بها كثيرا لأنها ليست تشريعا بل مبادئ أخلاقية. أما الفريق الثاني فقد اعتمد منهجية تركّز على عناصر التاريخ الثلاثة؛ الشّخصية، البيئة، والزمان، ابتغاء تفسير الافكار والاحداث في خلال سياقاتها وتأويلها مع ما يتوافق مع تلك العناصر.[١٢] وهكذا اجتهد المستشرقون في إثبات أن بيئة الرسول صلى الله عليه وسلم أثرت في انتاج أفكار ذاتية وشخصية تقبل تفسيرات مختلفة. كما وركّز المستشرق الفرنسي شارل اوغستان سانت بوف Charles Augustin Sainte-Beuve(١٨٠٤م-١٨٦٩م) على شخصيته الرسول صلى الله عليه وسلم كأديب صاحب نص (القرآن)، مبيّنا أن النص تعبير عن مزاج فردي، ودعا إلى دراسة حياة الكاتب دراسة تفصيلية وسماه "وعاء الكاتب".[١٣] وخلص المستشرقون الى ان الأفكار (وقصدوا بها القرآن الكريم طبعا) ما هيإلا إفراز منطقي للآراء المتداولة فيبيئة الشخصية محطّ الدراسة. عندما ننطلق من فكرة رولان بارث التي تحدثنا عنها سابقا ومفادها تطبيق المعيار النقدي نفسه الذي يطبّق في المجتمعات الغربية سنصل الى محصلة مفادها ان منهجهم ومنهجيتهم في دراسة التاريخ الإسلامي قد تصلح لدراسة المسيحية والبحث عن أصولها خاصة إذا علمنا انها نشأت في بيئة حفلت بالعوامل المؤثرة من الخارج كالبابلية والاشورية وغيرها؛[١٤] التي أثرت على النص الديني المسيحي؛ وفي هذه الحالة يمكن رد مكونات المسيحية الى عناصرها الأولى. ولكن تطبيق المنهج نفسه على الدين الإسلامي وللغاية نفسها لن يُجْدِ نفعا لأن موضوعاته غيبية مستقلة وليست مادية تاريخية.

لم تنحصر مسألة أصل الدين الإسلامي في المنهج التاريخي فقط، بل عولجت بمناهج كثيرة أخرى طبقت الاسلوب نفسه; ومثال ذلك **منهج الاثر والتأثر** الذي يعني تجزئة كل عناصر الدين الاسلامي وردها إلى اليهودية والمسيحية او اليهما معا، او الى غيرهما من الحضارات والاديان.[١٥] وهي الفكرة نفسها التي طبقت في خلال المنهج التاريخي السابق الذكر ولكن في هذه الحالة بالجزئيات وليس بالعموميات.

حيث عمد المستشرقون إلى إثبات أن الوحي والفلسفة الاسلاميّة والسنة النبوية مستمدة من عوامل خارجية مارست عليها الاثر والتأثر، وبالتالي تم نفي أي اصالة للدين الإسلاميّ. نحن لا ننكر وجود تفاعل بين العناصر الثقافية لمختلف الحضارات عند التقائها ويكون ذلك على شكل احتكاك او تثاقف حضاري تتغير على إثره الانماط الثقافية الاصلية لتلك المجتمعات في عملية تبادلية وتوفيقية لتلك العناصر، وقد يتم قبول تلك العناصر او رفضها ان لم تتوافق مع المنظومة الفكرية لتلك المجتمعات، وفي حالة فرضها فلا يعتبر هذا الامر تثاقفا بل سيطرة استعمارية تفرض ثقافتها غصبا. وبالعودة الى منهج الاثر والتأثر نجد انه لا يتحدث عن التوفيقية ولا يقتنع بالتفاعل الحضاري مع احتفاظ كل حضارة بخصوصيتها، بل بالعكس ينسب كل الخصائص الى الحضارة الاصل. وفي هذا الصدد كتب المستشرق الالماني أبراهام غاير Abraham Gayer (١٨١٠م-١٨٧٤م) كتابا عام ١٨٣٣م بعنوان" ماذا أخذ القرآن عن اليهودية"، فتوالت الأبحاث بعده تفكك عناصر القرآن لتردها الى مصادر أخرى خاصة إذا وجد تشابه في بعض الجزئيات بين ما ورد في القرآن الكريم وما وجد في الانجيل والتوراة. وها هو المستشرق اليهودي إجناس جولد تسيهر Ignaz Goldziher (١٨٥٠م-١٩٢١م) يسترسل في مسألة التأثيرات الخارجية فيقول إن "تبشير النبي العربي ليس الا مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينية عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحيّة وغيرها، التي تأثر بها تأثرا عميقا، والتي رآها جديرة بان توقظ في بني وطنه عاطفة دينية صادقة، وهذه التعاليم التي اخدها عن تلك العناصر الاجنبية كانت في وجدانية ضرورية لإقرار لون من الحياة في اتجاه يريده الله. لقد تأثر بهذه الافكار تأثرا وصل الى اعماق نفسه، وادرك بإيحاء قوة التأثيرات الخارجية فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيا الاهيا "[١٦] وقد علق عليه الامام الغزالي ذاكرا ان جولد تسيهر قد كتب ٤٠٠ صفحة في الاستدلال على ان العقيدة والشريعة هبطتا على الرسول صلى الله عليه وسلم من أي ناحية الا من السماء،[١٧] كما ذهب ثيودور نولدكه Theodore Noldeke(١٨٣٦م-١٩٣٠م) إلى ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد تأثر بأفكار

ورقة بن نوفل، وبعد الهجرة اخذ ينقل عن اليهودية والنصرانية لصياغة ديانة الاسلام الجديدة.[١٨] واخذ التصور الاسلامي للملائكة عن اليهودية،[١٩]واستقى فكرة الجنة من معلمين مجهولين تأثروا ببعض الرسومات والفسيفساء المسيحية التي تصور حدائق الفردوس.[٢٠] ويقول في هذا الصدد المستشرق جولد تسيهر Ignaz Goldziher (١٨٥٠م-١٩٢١م) : "صار رهبان المسيحيين واحبار اليهود موضع مهاجمة منه، وقد كانوا في الواقع أساتذة له."[٢١] وفي سياق التأثر دائما ذكر الباحث مانع بن حماد الجهني على لسان المستشرق الإنجليزي شيلدون آموس Sheldon Amos (١٨٣٥م-١٨٨٦م): "ان الشرع المحمدي ليس الا القانون الروماني للإمبراطورية الشرقية معدلا وفق الاحوال السياسية في الممتلكات العربية."[٢٢] وهذا يعني انهم وصلوا إلى نتيجة مفادها ان الدين الاسلامي دين جديد يجمع بين اليهودية والمسيحية واديان اخرى كالمجوسية والبوذية وغيرها. وهذه محصلة تطبيق منهج الأثر والتأثر، ذلك المنهج الذي طبّق في البيئة الغربية بشكل كبير، وتناسب مع حضارتهم التي بنيت على تراث الفكر اليوناني القديم، وما تطبيقه على الدين الإسلامي إلا تعدّ عليه لأن هذا الأخير ذو أصول واسس دينية مستمدة مباشرة من القرآن والسنة النبوية.[٢٣] وكان من المقضي عند دراسة أصل الأديان غير الوضعية الوصول الى محصلة موحدة مفادها ان أصل الديانات السماوية واحد. لكن المنهجية المادية الغربية التي تعاطت مع الديانات أوجدت نتائج شاذّة عن الحقائق تخدم ايديولوجية مرتبطة بالأنساق الدينية والسياسية الاستعمارية والمعرفية ابتغت جاهدة من ورائها إضمار الحقائق. فكان من الأجلّ دراسة التأثير والتأثر بين الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية ومدى اسهام الاولى في ازدهار الثانية وتطورها.

نبقى دائما في إطار تجزئة الدين الإسلامي الى جزئيات ومحاولة الاستشراقيين ردّها إلى أصلها اليهودي او المسيحي او أي ديانة اخرى، حيث استعانوا بالإضافة الى المنهج التاريخي ومنهج التأثير والتأثر بالمنهج **النقدي التفكيكي التحليلي؛** الذي يعمد الى تحليل الظاهرة إلى مجموعة من المكونات والعناصر والجزيئات، ومن ثمّ التأليف بينها بصورة غير متجانسة، فيتم بذلك قتل السياق، وانتزاع ما ينشده

المستشرقون، وإلقاء ما لا يخدم ايديولوجيتهم. وهنا يحرص هذا المنهج كل الحرص على ردّ كل فكرة الى أصول سابقة عليها، بفعل تصور مسبق مرسخ في أذهانهم من رواسبهم الثقافية مفاده أنّ الحضارة الاسلامية عقيمة، ومفكروها عاجزون عن الابداع.[٢٤] هذا التصور المسبق لدى الباحثين المستشرقين أدى الى الحكم على الحضارة الاسلاميّة بالجدب، وعلى الدين بالجمود وعلى الشعوب بالتخلف.[٢٥]ومن هذا المنطلق فكك المستشرقون الفلسفة الاسلامية الى اجزاء، وقاموا بردّها إلى أصلها وهو في نظرهم الفلسفة اليونانية؛ وفي لحظة الردّ اعتبروها صورة مشوهة عن مذهب ارسطو، في إشارة إلى عدم تطابق التصور الإسلامي مع التصور الأرسطي، وهو في حدّ ذاته اعتراف من قبلهم بالاختلاف؛ فالتصور الإسلامي للوجود ينتهي إلى وجود خالق يعتني بمخلوقاته، بينما التصور الأرسطي يرتّب الأشياء ويستدل على وجود صانع، ولكنه لم يتصور تدخلا إلهيا عُني بخلقها وتدبير أمورها، وهنا تظهر جليا الفجوة بين الفكرين.[٢٦] إذن قلنا سابقا أن المستشرقين قاموا بتفكيك الفلسفة الإسلامية إلى أجزاء، وفي الأخير أعلنوا نتائجهم مؤكّدين أن تعالم الدين الاسلامي تتنافى مع البحث العلمي، وأن القرآن سجن لحرية العقل وعقبة تمنع نهوض الفلسفة.[٢٧] ومن بين القضايا الاسلامية التي فككوها وحللوها إلى جزئيات، قضية المرأة المسلمة؛ فلم يدرسوا الوضع العام الذي كفله لها الاسلام والذي رفع مكانتها في حين أنّه في فترة الهجرة النّبوية عُقد مؤتمر بفرنسا عام ٥٨١ م[٢٨]، اختلف أعضاؤه فيما إذا كانت المرأة إنسانا أم غير إنسان؛ وقد قرّر المؤتمر في الأخير أنّ المرأة إنسانة خُلقت لخدمة الرّجل. ففككوا إذن قضاياها الى جزئية الحجاب وحدها، وجزئية الميراث وحدها، وجزئية المساواة وحدها، وجزئية تعدد الزوجات وغيرها من الجزئيات التي حوّروها بحسب أيديولوجيتهم، فحكموا على وضع المرأة المسلمة وقارنوه بوضع المرأة الغربية وبثّوا فكرة المساواة بين الرجل والمرأة في كلّ شيء. ويحضرنا هنا قول المستشرق الالماني يوهان فوكYohan Fuck (١٨٩٤م-١٩٧٤م) الذي انتقد هذا المنهج ذو النزعة الايديولوجية قائلا: "لا يمكن تقسيم القرآن الى شذرات كلمة وسورة وقصة وآية، بحيث أصبح الكتاب وكأنه فسيفساء.."[٢٩]

لقد كان شغل المستشرقين الشّاغل هو ردّ أصل الدين الإسلامي إلى الديانات الأخرى سواء كانت سماويّة او وضعية، واستعانوا بالكثير من المناهج من أجل اثبات هذا التصوّر المسبق، ومن بينهم **منهج المطابقة والمقابلة** الذي استعمل في دراسة النصوص الاسلاميّة والترجمة وتحقيق النصوص وارجاعها إلى مصادرها الاصلية. ولقد سعى المستشرقون جادّين من اجل اثبات فرضيات مسبقة راسخة في فكرهم طبقا لأحكام مسبقة، فطوّعوا النصوص للبرهنة على صحة تلك التصورات.(٣٠) فكانت فرضياتهم تتبع رواسبهم الفكرية وتدّعي ان النصوص القرآنية ليست الا صورة لما ورد هنا وهناك قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم. فكلما وجدوا تطابقا بين ملامح نص قرآني مع نص سابق، سارعوا برد ذلك الى ثقافة الرسول التاريخية، والى اطلاعه على ما جاء في الكتب السابقة، وفي حالة ما إذا وجدوا اختلافا بين النصوص عمدوا إلى اخفائها او تجاوزها. ويؤكد هذا ما ذكره الباحث محمد قدور التاج من ان المستشرق الفرنسي ريجي بلاشير Regis Blachere (١٩٠٠م-١٩٧٣م) ذكر في كتابة معضلة محمد انه يوجد تشابه كبير بين القصص في القرآن، وبين القصص اليهودي المسيحي عند مقارنتها.(٣١) يسعى اذن هذا المنهج إلى مقارنة ومطابقة ومقابلة ما جاء به الاسلام وما جاءت به الديانات السماوية الاخرى، خاصّة القصص القرآنية التي ورد بعض منها في الكتب السماوية الاخرى وخاصّة قصة المسيح عليه السلام، وأهل الكهف، وذلك لتأكيد أفكارهم القائلة بان القرآن استقى مضامينه من الديانات السابقة؛ وما هذه إلا ملامح أيديولوجية تدفع بالباحثين المستشرقين الى الانصياع لها لضرب النسق الإسلامي علميّا.

ومن المناهج المشابهة للمناهج الأولى في مسألة البحث عن أصل الدين الإسلامي **المناهج الالسنية "التناص"** ؛ بمعنى أن النصوص القرآنية في نظر المستشرقين طبعا تحمل بصمات نصوص أخرى أسهمت في تشكيلها، حيث يقول الفيلسوف الفرنسي رولان بارثRoland Barthes (١٩١٥م-١٩٨٠م)" النص مصنوع من كتابات مضاعفة، وهو نتيجة لثقافات متعددة تتداخل كلها مع بعض في حوار ومحاكاة وتعارض....وثمة مكان تجتمع فيه هذه التعددية...إنه القارئ."(٣٢)

يحيلنا هذا القول إلى مسألة اعتبار النصوص الاستشراقية خطابات تجمع العديد من الأفكار حول قضايا إسلامية مختلفة؛ تلك الأفكار تجتمع في آخر المطاف عند القارئ، فتكون النصوص بذلك خطابات تحمل انساقا مستترة موجهة الى القارئ الغربي. لقد استخدم المستشرقون التناص للجزم بالتداخل في النص القرآني، خاصة في مواضيع الصلاة والقصص القرآنية... ورغم ان المنهج معاصر إلا ان القضية قديمة قدم الاستشراق او أكثر، ولكنها لازالت تعدّ من رواسب تلك الحقبة، ولازال المستشرقون المعاصرون يحاولون اثباتها بالمناهج المعاصرة. وفي السياق نفسه وظفوا منهجا آخر هو **منهج الارجاع؛** الذي يهدف الى ارجاع كل مظهر من مظاهر الحياة الفعلية الى البداية التي تشرح ذلك المظهر. فكان المستشرقون يرجعون سلوك الأهالي الشرقيين إلى ما يعتبر "الاصل"؛ اي الى البيئة الرعوية الصحراوية للعربي المسلم، التي توحي إليهمبالتخلف التاريخي المعادل للتخلف الجغرافي.(٣٣) الأمر الذي شجع على تمرير ايديولوجية الجنس الراقي والجنس الدوني التي تخدم النسق الاستعماري؛ وهنا نلمح التناقض الذي يقع فيه المستشرقون، فمن جانب يوظفون مناهج تفيدهم في اثبات ان الدين الاسلامي ما هو الا جمع من المعارف اليهودية والمسيحية وغيرها، ومن جانب آخر يوظفون مناهج ترد سلوك المسلم الى أصله وبيئته الأولى الصحراوية.

ومن اجل تمرير الأيديولوجية الغربية المناهضة للنسق الديني الإسلامي استعان المستشرقون في دراساتهم **بالمنهج التّشكيكي والافتراضي؛** ذلك المنهج الذي دعا الى التشكيك في القرآن والوحي والسيرة النبوية وفي كل نصّ، خاصة النصوص الدينية المقدسة. وكان أساس المنهج عند أغلبيتهم؛ أي شيء معاد للإسلام او للنبي يجب ان يكون صحيحا، وأي شيء في صالحهما، يجب فحصه بنظرة دقيقة.(٣٤) ونتيجة لهذه الرؤية فإن كل ما يعادي الاسلام يتعاطفون معه ويقبلونه بدون تمحيص، وكل ما يكون في صالحه يعرض للتدقيق والتمحيص فيرفض جزء كبير منه ويقبل القليل.كيف للمنطق ان يقبل مثل هذه الأفكار وتحت غطاء العلم والمعرفة؟ كيف ستكون النتيجة إذا انطلقنا أساسا من فرضية الرفض منذ البداية وأثبتناها بأي شكل؟

وكيف ستكون عملية التمحيص التي تنكر مسبقا النبوة والوحي، امور هي قطعية ولا شك فيها بالنسبة للمسلم؟ ولترسيس الشكّ أكثر في نفوس قرّاء الخطاب استعانوا بألفاظ وعبارات مقصودة من بينها؛ يصعب تصديق ذلك –إذا أمكن قبول هذه الرواية –ومما يدعو للشك – ومن الممكن او يبدو –لو صدقنا الرواية –أغلب الظن ...إلخ.

من القضايا الاسلامية التي شككوا فيها مرارا وتكرارا مصدر القرآن الكريم، والسيرة النبوية الشريفة باعتبارهما الركيزة الأساسية التي بني عليها الاسلام، وبعدهما التشكيك في كل موضوع له علاقة بالدين الاسلامي. وقد انساق المستشرقون المعاصرون إلى رواسب الأفكار القديمة واعتمدوا عليها في دراساتهم كمصدر موثوق يتوارثونه دون تدقيق، فها هو المستشرق الفرنسي المعاصر ريجي بلاشير Régis Blachère (١٩٠٠م–١٩٧٣م) يقول عن القرآن الكريم:" قلّما وجدنا بين الكتب الدّينية الشّرقية كتابا بلبل بقراءته دأبنا الفكري أكثر مما فعله القرآن."[٣٥] ويذهب المستشرق الفرنسي المعاصر ايضا فرانسوا ديروش François Déroche (١٩٥٢م) إلى ان القرآن "بالنسبة للمؤرخ ليس سوى نص ظهر في تاريخ الانسانية خلال القرن السابع."[٣٦] وعن الآيات القرآنية ذكر الباحث محمد عبد الله الشرقاوي على لسان المستشرق الهولندي راينهارت بيتر آن دوزي Reinhart Piter Anne Dozy (١٨٢٠م–١٨٨٣م): "انه كتاب ذو ذوق رديء للغاية، ولا جديد فيه الا القليل، وفيه اطناب بالغ وممل إلى حد بعيد."[٣٧] وفي السياق نفسه ذكر الباحث ساسي سالم الحاج على لسان المستشرق الألماني رودي باريتRudi Paret (١٩٠١م–١٩٨٣م): "ان طريقة تعبير القرآن كثيرا ما تكون مقتضبة، واحيانا ترد في سياق الحديث فكرة أو تلميح خاطف أو تبقى بدون تلميح، وعلى القارئ ان يجتهد في ربط سياق الحديث بما يلزم من إضافات...وقد أدخلت في ترجمتي إضافات معينة هنا وهناك لربط سياق الكلام."[٣٨] وهذا دليل قاطع على تحريف ترجمات القرآن وقصرها بسبب أيديولوجيتهم وبسبب عدم التكافؤ بين اللغة الأصلية العربية لغناها بالمفردات وبين اللغات الأخرى. وبخصوص تشكيكهم في أصل القرآن الكريم فقد تطرقنا إلى ذلك سابقا في المنهج التاريخي وعرضنا آراءهم التي ذهبت إلى ان القرآن

ما هو الا مزيج من اليهودية والنصرانية وبعض الديانات الأخرى.ثم ذهبوا بعيدا بتفكيرهم الشكي وانطلقوا من فرضيات مفادها أن القرآن ليس وحيا سماويا بل هو من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم، حيث يذكر الباحث محمد محمود زقزوق في هذا الصدد وعلى لسان المستشرق الانجليزي جورج سيل George Sale (١٦٩٧م-١٧٣٦م) في مقدمة ترجمته الانجليزية لمعاني القرآن التي صدرت عام ١٧٣٦م :" أمّا أن محمدا كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له فامر لا يقبل الجدل، وان كان من المرجّح ان المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطته لم تكن معاونة يسيرة."[٣٩] وفي مسألة المساعدة ادّعوا ان ورقة بن نوفل هو السر الكبير في ثقافة محمد الكتابية والانجيلية فقد كان عالما مسيحيا تنصر وترجم التوراة والانجيل إلى العربيّة وعاش محمد بجواره ١٥ عاما قبل البعثة، وبواسطته حصل على معظم معلوماته ومعارفه. رغم أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لجأ اليه للمرة الاولى عند نزول الوحي لاستشارته، وتنبأ له بان قومه سيطردونه وانه لو يدرك ذلك الزمان فسينصره لكنه مات دون ان يعتنق الاسلام.[٤٠] وفي السياق نفسه ذهب المستشرق الالماني كارل بروكلمان Carl Brockelmann (١٨٦٨م-١٩٥٦م) في كتابه تاريخ الشعوب الاسلاميّة إلى: "انه لم تكد تنقضي مدة وجود محمد في غار حراء حتى أعلن ما ظن انه قد سمعه كوحي من عند الله. ولكن ذلك لم يثر اهتمام الناس لأنهم كانوا متعودين على ظهور الشاعر والكاهن. اما بخصوص احكامه المتعلقة بالخلافات والمشكلات من قتل وسرقة فقد كان يعرضها محمد على صاحب له غيبي وبعدها يذيعها في الناس نثرا مسجوعا كانه الوحي الذي انزل عليه.[٤١] يؤكد كارل بروكلمان ان الوحي لم يثر اهتمام الناس لانهم كانوا متعودين على الشعر، فكيف نفسر اضطهادهم له ورفضهم دعوته وخوفهم على دياناتهم ما داموا متعودين على مثل أقواله؟

لقد شكك المستشرقون في كل شيء له علاقة بالرسول صلى الله عليه وسلم حتى في اسمه، حيث ذكر الباحث عبد الجبار ناجي على لسان المستشرق البولوني بيبرشتاين كزيميرسكي Biberstein Kazimirski (١٨٠٨م-١٨٨٧م) معترفا .:" كم

غالوا في كتاباتهم في السيرة النبوية وأجهدوا انفسهم في إثارة الشكوك، وقد أثاروا الشك حتى في اسم الرسول، ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجوده."[٤٢] وخير مثال على ذلك دراسة بعنوان أسطورة محمد في الشّرق، والاسماء الكثيرة التي أطلقت على الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن بينها؛ يثمواموس، ماميتوس، ميوماتو، ماهومت، ماهوند.[٤٣]

لقد شكك المستشرقون في القرآن وفي السيرة والعقيدة والتاريخ الاسلامي ولم يتركوا اي مسألة لها علاقة بالدين الإسلامي خاصة الظواهر الغيبية كمسألة نزول الوحي والمعجزات وغيرها الا وبثوا فيها شكوكهم ورفضوها، وهذا ليس من العلم في شيء، بل هي ايديولوجيات تخدم الانساقالغربية.وفي مقابل المنهج الشكي طبّقوا **المنهج الافتراضي** الذي يعتمد على الافتراض والاستنتاج غير المؤسس على بيّنة، فيتم تصديق ما هو باطل واخفاء الحقيقة او تزييفها.[٤٤] وقد ذكر الباحث محمد محمود بعض الافتراضات والمزاعم التي روجها المستشرق اليهودي إجناتس جولد تسيهر Ignaz Goldziher (١٨٥٠م-١٩٢١م) الذي قال: "تم اختراع كم هائل من الاحاديث في العصر الاموي عندما اشتدت الخصومة بين الامويين والعلماء الصالحين، ففي سبيل محاربة الطغيان والخروج عن الدين راح العلماء يخترعون الاحاديث التي تسعفهم في هذا الصدد، وفي الوقت نفسه راحت الحكومة الاموية تعمل في الاتجاه المضاد، وتضع او تدعو الى وضع احاديث تسند وجهات نظرها، وقد استطاعت ان تجند بعض العلماء الذين ساعدوها في هذا المجال، ولكن الامر لم يقف عند حد وضع احاديث تخدم اغراضا سياسية، بل تعداه الى النواحي الدينية في امور العبادات التي لا تتفق مع ما يراه اهل المدينة، وقد استمر هذا الحال في وضع الاحاديث في القرن الثاني ايضا."[٤٥] لو سلّمنا أن الواقعة صحيحة(رغم ان عهد بني أمية يتطلب فرد بحث خاص به وهو ليس موضوعنا الأن) فالهدف ليس عرضها فقط بل دسّ فكرة مفادها ان الأحاديث النبوية الشريفة ما هي الا احاديث تخدم الوقائع التاريخية والاجتماعية، وتصاغ بحسب الظروف التي تعيشها البلاد الإسلامية، وهي أحاديث مروية من قبل اشخاص غير الرسول صلى الله عليه وسلم،

وقد تناسى المستشرق انه تمت مراجعة الأحاديث النبوية الشريفة، وقد تعرضت للتدقيق والتمحيص والتصفية بهدف كشف الأحاديث الصحيحة ونبذ الأحاديث الضعيفة التي تم الافتراء بها على الرسول صلى الله عليه وسلّم، ولا زالت الى اليوم مؤسسات دينية تقوم بمراجعة الأحاديث وآخرها قرار السعودية مراجعة الأحاديث الشريفة بهدف الكشف عن المفاهيم المكذوبة عن الرسول صلى الله عليه وسلم.[٤٦] كما حاول المستشرقون من جانب آخر افتراض ترتيبات جديدة للآيات والسور القرآنية ترتيبا منطقيا يقبله العقل البشري، وهذا دليل على قصر تصور المستشرقين امكانية نزول الوحي من عند الله عز وجل، وتعمدهم اقصاء كل الروايات، وكتب السيرة الصحيحة، وكل سند تاريخي.

في خلال تطبيق منهج الشك والافتراض وبغية طمس الحقائق تم اللجوء إلى **نسج الأكاذيب والخرافات،** فغلب الطابع الاسطوري والخيالي والخرافي على محاولاتهم التشويه والتشكيك في كل ما له علاقة بالدين الاسلامي. ومن بين القصص الخيالية والخرافات قول المستشرقين "ان محمدا قد وعد اهل مكة عندما طلبوا منه معجزة ان يدعو الجبل فيأتيه الجبل مسرعا، واجتمع الناس، ودعا محمد الجبل، فلم يتحرك، فقال محمد بخفة: ان لم يأت الجبل إلى محمد، فليذهب محمد إلى الجبل." ومن خرافاتهم أيضا "ان محمد امر واحدا من اتباعه ان يسبقه إلى بئر على الطريق وان ينزل إلى اعماقها، وعندما يقترب منها محمد واتباعه يصيح بأعلى صوته قائلا: محمد حبيب الله، محمد حبيب الله. وهنا يشكر محمد ربه لأنه شهد له بمحبته امام هذا الجمع الغفير من الناس، ويأمر الناس بردم البئر بالحجارة وبناء مسجد صغير عليها تخليدا لهذه المعجزة، وبهذا دفن محمد صاحبه كيلا يكشف الخديعة."[٤٧]كما نشروا الاكاذيب عن خلفاء المسلمين وصفوا الخليفة على بن ابي طالب بالبدانة والقباحة والجبن وسوء الخلق، والاستسلام المهين لغطرسة زوجته الغبية، المتذمرة فاطمة.[٤٨] ووصفوا الدّولة الاموية والعباسية بالفساد والمجون، وادعوا ان اللّغة العربيّة دينية لا تصلح الا للطقوس الدّينية الصلاة والدعاء شانها شان العبرية القديمة.[٤٩]ويقول الباحث شوقي ابو خليل في هذا الصدد: "من الامور المثيرة للعجب

في عالم الاستشراق والتبشير والاستعمار والغزو الفكري، الاكاذيب التي تفترى والاضاليل التي تخترع، والشبهات التي يروّج لها، دون رادع من دين، او رقيب من ضمير، او مانع من علم او حقيقة."[٥٠] إن الجهل بمؤلفات السيرة النبوية وبالروايات الصحيحة وبالتاريخ الاسلامي عامة، واحيانا ليس الجهل وانما العلم مع التعمد جعل المستشرقين يتخيلون اشياء لا اساس لها من الصحة ويصدقونها وينشرونها فتصبح افكارا متوارثة جيلا بعد جيل كنوع من الرواسب الثقافية التي تضل بدل ان تهدي، ويتم الإفادة منها كمعلومات صادقة لا تقبل الشك.

لقد أدت إثارة الشكوك والافتراض ونسج الأكاذيب والتخاريف بالمستشرقين الى نفي جل الحقائق المتعلقة بالنسق الاسلامي مثل الوقائع المرتبطة بنزول القرآن وكيفية جمعه، وخير منهج يناسب هذا الوضع هو **منهج نفي** كل ما يتعارض مع ايديولوجياتهم الاستشراقية، وخير مثال على ذلك ما ذهب اليه المستشرق البريطاني ألوي سبنجر Aloy Spenger(١٨١٣م-١٨٩٣م) الذي ذكر ان اسم النبي صلى الله عليه وسلم ورد في ٤ سور من القرآن هي آل عمران والأحزاب ومحمد والفتح، وهي جميعها سور مدنية، ومن ثم فان لفظة محمد لم تكن اسم علم للرسول قبل الهجرة، وبهذا ينفي ويلغي بكل سهولة الروايات التاريخية والسنن المأثورة التي ورد فيها ذكر اسم محمد صلى الله عليه وسلم في الفترة المكية، لا لشيء سوى ان الاسم لم يرد في السور المكية.[٥١]

نبقى دائما في دائرة المناهج الاستشراقية التي تخدم المصالح فتشكك وتنفي وتكذب وتنتقي الوقائع التي تتناسب مع الأيديولوجية الغربية، لنجدهم يطبقون **المنهج الانتقائي**؛ حيث يتم انتقاء واعتماد الاحداث والافكار التي تخدم افتراضاتهم ولو كانت ضعيفة لتجعلهم يبلغون النتائج والاحكام التي ينشدونها، ويهملون ما لا يخدم مصالحهم ولو كان صحيحا. فيتبعون بذلك منهجية مبنية على صياغة الفكرة مسبقا ثم التماس وانتقاء كل دليل ضعيف وشاذ من الروايات والكتب الضعيفة التي توافق اهواءهم، والتي تعتبر غير موثوقة عند المسلمين وجعلها المصدر الاساس لدراستهم

مثل كتاب الاغاني للاصفهاني.[٥٢] ومن القضايا التي تم اهمالها ونفيها من قبلهم هي نفي وحدة الأمة الاسلامية وتعميق الهوة والفتن بين المسلمين من خلال تعظيم دور الفرق الدينية (الشيعة والخوارج وغيرهم) وتمجيدهم.[٥٣]

وبعد ان يقوموا بعملية انتقاء ما يناسبهم من الأحداث والوقائع التاريخية الاسلامية يبدؤون بعملية تدخل أخرى تحت غطاء **المنهج الاسقاطي او العكسي**، هذا المنهج الذي يساعد المستشرقين في خلال "اسقاط الواقع المعاش على الوقائع التاريخية الضاربة في أعماق التاريخ فيفسرونها في ضوء خبراتهم ومشاعرهم الخاصّة وما يعرفونه من واقع حياتهم ومجتمعاتهم."[٥٤] وهكذا يلتزم المستشرق بصورته الذهنية دون غيرها، ويحاول جاهدا اخضاع جل الحقائق لتشبه الصورة التي في خياله، فهو في هذه الحالة يخضع إلى هواه ولا يتخلص من الانطباعات التي تركتها له بيئته الثّقافيّة الغربية، ولا يتحرر من الأحكام المسبقة حتى وان خالفت الموضوعية العلمية، فيلتمس لها الحلول والفرضيات،[٥٥] والمحصلة ستكون نتاج بيئته وايمانه الشديد بثقافته باعتبارها الأنموذج الامثل لكل الثقافات والمناهج في خلال نظرته الاستعلائية، وهكذا تكون احكامه جائرة ومنافية للحياد العلمي. ففي قضية القرآن الكريم ذهب المستشرقون الى حض المسلمين على ضرورة التحرر من المصادر الدينية، واخضاعها للرؤية النقدية العقلية وبالتالي التقليل من قداستها، والحض على هجرها واستبدالها بالقوانين الوضعية والقيم الانسانية. كما اعتبروا العقائد الدينية نوعا من الأساطير التي لا يمكن اثباتها.[٥٦] حيث فسر المستشرق الأسكتلندي ويليام مونتجمري واط William MontogmeryWatt(١٩٠٩م-٢٠٠٦م) أن لجوء النبي صلى الله عليه وسلم إلى غار حراء كان فرارا من حرّ الصيف، وان محمد صلى الله عليه وسلم كان يعرف القراءة والكتابة لأنه عمل بالتجارة، والتاجر لابد عليه ان يدقق حساباته ويراجعها.[٥٧] وهكذا مارس المستشرقون منهج الاسقاط وهم متأثرون بخلفياتهم الثقافية والدينية. أما المنهج العكسي الذي هو أقرب إلى منهج النفي والانكار؛ فهو اتيان أوثق وأصدق الأخبار ثم قلبها عمدا الى عكسها، وفقا لتصور مسبق يسطر في ذهن المستشرق. ومثال ذلك ما ذكره الباحث ادوارد سعيد عن

المستشرق هربت جورج ويلز Herbert Georges Wells(١٨٦٦م-١٩٤٦م) الذي تخيل النبي صلى الله عليه سلم رجلا دفعته تطلعاته وطموحاته في سن الكهولة الى تأسيس دين ليعد في زمرة القديسين، فالف مجموعة من عقائد خرافية وسطحية وقام بنشرها بين قومه فاتبعها بعض الرجال.[٥٨]

ومن بين المناهج الخطيرة التي اثرت بشكل سلبي على نتائج الدراسات الاستشراقية حول العالم الاسلامي **منهج البناء والهدم**؛ فالبناء هو الاطراء والمديح من قبل المستشرقين لبعض جوانب الظاهرة التي تكون غير رئيسية في الموضوع، ثم تأتي مرحلة الهدم وفيها يجرد المستشرق الموضوع من اهم اركانه ومقوماته على نحو يؤدي الى سقوطه.[٥٩] ومثال ذلك منهجية المستشرقين حيال بعض الظواهر كتحرير المرأة والاخلاق،إذ يبدؤون بالمديح والثناء لإضفاء سمة الموضوعية والانصاف، وبعدها يرسلون وابلا من المعلومات المزيفة والمشوهة القاصمة للعقيدة للإسلامية. ومثال ذلك كتابات المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبونGustave Le Bon (١٨٤١م-١٩٣١م) في كتاب حضارة العرب الذي كان يشيد بما حققه الاسلام من مكاسب للعرب في الجزيرة العربية وكيف انه رد للمرأة اعتبارها وكيانها، ثم وسط هذا البناء نجده يوجه معاول الهدم تجاه القران الكريم فيرى انه من تأليف محمد ثم يهدم شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، ويرميه بالهوس والجنون وبتهمة الصرع، ويبين كيف كانت اميته سببا في التناقضات الموجودة في القرآن[٦٠] حيث يقول: "ويجب عدّ النبي محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية، كأكبر مؤسس الديانات...فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشؤون الديانات ويقودون الناس، وانما اولوا الهوس هم الذين مثلوا هذا الدور...هم الذين اقاموا الاديان، وهدموا الدول، واثاروا الجموع، وقادوا البشر، ولو كان العقل لا الهوس هو الذي يسود العالم، لكان للتاريخ مجرى آخر."[٦١] اعتمد المستشرقون على نوع من **التخدير المعرفي** يستهل بالبناء وينتهي بالهدم، كما وسبق ان فعلوا في مدح وتمجيد ماضي المسلمين وجعلهم يعتزون بماضيهم ويمجدون آباءهم وبذلك يبتعدون عن مشاكل الواقع ولا يبحثون عن حلول لها. وهي حيلة غربية يتقدم بها الغرب ويبقى

المسلمون في حالة من التخدير والشلل الثقافي والتقليد الأعمى للآخر، والشعور بالفشل والاحباط والدونية، حيث ان النجاة الحتمية هي الانصياع والتلون بثقافة الغرب والشعور بتفوق الاخر.[٦٢]

لقد طبق المستشرقون جل المناهج التي ذكرناها سابقا بشكل **تعميمي ورؤية موسوعية شمولية**، بغية جعل الواقعة الفردية تتحول الى ظاهرة عامة، وهكذا يتم إطلاق احكام عامة تنطبق على الشّرق كله دفعة واحدة.[٦٣] الأمر الذي يؤدي الى التعصب للمركزية الغربية؛ مثل ما ذكره الباحث فاروق فوزي حول ادعاء بعض المستشرقين ان الحياة في دار الخلفاء طافحة بالترف والانغماس في الشهوات.[٦٤] هذا الأمر يؤكد عمومية الاحداث وينفي عنها التطور والتغير، وهو امر ينافي المنطق العلمي. ومن ناحية أخرى درسوا التاريخ الاسلامي وتراثه **بمنهج علماني** استبعد وقوع ظواهر دينية لا تخضع للقوانين المادية، وأخضع كل ظاهرة الى التحليل العلمي حتى وان كانت غيبية.[٦٥] حيث استبعد المستشرق الاسكتلندي ويليام مونتجمري واط William MontogmeryWatt(١٩٠٩م-٢٠٠٦م) حادثة شق الصدر ورؤية الرسول صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام،[٦٦]وفعل المستشرق الالماني كارل بروكلمان Carl Brockelmann (١٨٦٨م-١٩٥٦م) الشيء نفسه في حادثة الاسراء والمعراج التي اعتبرها ضربا من الرؤى المنامية التي تحصل للعراف.[٦٧]كما واستعان المستشرقون **بالمنهج المادي** الذي يمنح العامل المادي اهمية كبرى؛ وفسروا الوقائع التاريخية الاسلامية تفسيرا ماديا لا يتماشى وطبيعة الدين، وأكدوا على ان التوسع السريع للإسلام كان سببه الجفاف الشديد في البادية،[٦٨] كما ان التوسع والغزو لا يمكن فهمهما الا على اساس العامل الاقتصادي[٦٩]، وأكدوا آرائهم بضرب أمثال عن العامل الاقتصادي المتمثل في السلب والنهب والاستيلاء على ممتلكات الغير والضرائب والجزية وغيرها.

ختاما وفي خلال عرضنا لبعض المناهج التي استعان بها المستشرقون في دراستهم لتاريخ وتراث الامة الاسلامية، نستشف انهم كانوا يتعاطون مع النصوص

الدينية والمسائل الغيبية بنظرة مادية مأدلجة ساهمت في بث المعلومات المزيفة التي لازالت تتداول عبر الباحثين الى يومنا هذا، ويحضرني الان قول الباحث محمد محمود زقزوق في هذا الصدد:" ان منطلق تفكيرهم بالنسبة للإسلام، ونبيه صلى الله عليه وسلم يختلف عن المنطلق الذي يصدر عنه تفكير المسلمين، ولهذا تختلف وجهات النظر بيننا وبينهم وستظل مختلفة".(٧٠) لقد طبق المستشرقون مناهج مختلفة ومتعددة بغية دراسة التراث الاسلامي، وكان جلّها يخدم الأنساق؛ الدينية، السلطوية الاستعمارية والمعرفية والنسق الراهن. وكانت تُصطفى بحسب مقارباتهم للمواضيع واهدافهم؛ حيث اعتمدوا على المنهج التاريخي ومنهج الأثر والتأثر، والمنهج النقدي التفكيكي التحليلي، ومنهج المطابقة والمقابلة والمقارنة، والمناهج الالسنية المعاصرة، ومنهج الارجاع، والمنهج التشكيكي والافتراضي، والمنهج الانتقائي، والمنهج الاسقاطي او العكسي، ومنهج البناء والهدم، برؤية شمولية علمانية مادية. وكانت جل منهيجياتهم تعتمد على الأساليب التالية؛

-اعتماد الخلفية الثقافية للمستشرقين من اجل معالجة القضايا الاسلامية، واخضاع النصوص الى التحليل المادي الذي لا يتوافق مع النسق الإسلامي.

-استبدال المعارف اليقينية بافتراضات واهية لتفسير النصوص الدينية.

-الاعتماد على الروايات والأسانيد الضعيفة لجعلها حقيقة تدعم آراءهم وايديولوجياتهم، خاصة المصادر التي أضعفها العلماء المسلمون.

-تقديم دراسات مبينة على الآراء الشخصية والعامة، وقد قال في هذا الصدد الباحث محمد محمود زقزوق ان المستشرق جيبير النوجتيGuibert de Nogent ١٢٢٤م لا يعتمد في كتاباته عن الاسلام على اية مصادر مكتوبة واشار فقط الى أرائه العامة، وانه لا يوجد لديه اية وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب، ثم قال مبررا كتاباته غير العلمية:" لا جناح على المرء إذاذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن ان يتصوره المرء."(٧١)

– تحريف وتزييف المعلومات التي تم الحصول عليها من المصادر العربيّة والاسلاميّة بغية تضليل القارئ.

–الاعتماد على المصادر الاستشراقية المتوارثة والتي تحمل معها رواسب التفكير الاستشراقي التراكمي الافتراضي.

–تفسير الاحداث بما يتماشى مع النضرة الاستعلائية الغربية للشرق.

لقد اختصر الباحث ادوارد سعيد منهجية الدراسات الاستشراقية في قوله: "ان للاستشراق هوية تراكمية وجماعية.. تتسم بقوة جبارة بسبب ارتباطها بالعلوم التقليدية كالدّراسات اليونانية واللاتينية وبالمؤسسات كالحكومات والشركات التجارية والجمعيات الجغرافية والجامعات وبألوان الكتابة المختلفة كأدب الرحلات والروايات. وكانت النتيجة في حالة الاستشراق ضربا من اتفاق الآراء، اذ أصبح المستشرق يحكم بالصحة على أشياء معينة، وانماط معينة من الاقوال، وانماط من الافعال، ...ويبني عمله وبحوثه عليها، كما انها بدورها تقوم بالضغط الشديد على كل من يلتحق بصفوف الكتاب والباحثين. وهكذا يمكن اعتبار الاستشراق منهجا من المناهج الملتزمة بنظام معين، أو بصورة خاصّة للشرق في الكتابة والرؤية والدراسة، تسوده قواعد ملزمة، ومنظورات خاصّة، وانحيازيات اديولوجية ملائمة في الظاهر للشرق."[٧٢] لقد لاحظنا في عرضنا للمناهج الاستشراقية ان قضية واحدة وهي أصل الدين الاسلامي قد عولجت بعدة مناهج وفي ازمنة مختلفة، وهذا يدل على توارث المعلومات التي اصبحت نوعا من الرواسب الثقافية ولازال المستشرقون يأخذون بها. وهذا دليل على ان الذات الاستشراقية لازالت تمارس الاستشراق الى يومنا هذا ولو بمسميات اخرى.

المراجع والهوامش:

(١) ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، دار المدار الإسلاميّ، دار الكتب الوطنية، ليبيا، ط١، ٢٠٠١، ص٤٤

(٢) محمد قدور تاج، الاستشراق، ماهيته، فلسفته، ومناهجه، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، ط١، ٢٠١٤م، ص١٥١

(٣) إبراهيم عوض، دائرة المعارف الاسلاميّة الاستشراقية، اضاليل واباطيل، مكتبة البلد الامين، ١٩٩٨م، ص٥

(٤) محمود حمدي محمد محمود زقزوق، مرجع سابق، الاستشراق والخلفية الفكرية، مصر، دار المعارف، ص٨١

(٥) رائد امير عبد الله، المستشرقون الالمان وجهودهم تجاه المخطوطات العربيّة الاسلاميّة، مجلة كلية العلوم الاسلاميّة، المجلد الثامن، العدد ١٥/١ّ ، ٢٠١٤م، ص١٨-٢١

(٦) المرجع نفسه، ص٢٠

(٧) محمد قدور تاج، مرجع سابق، ص ١٧٥

(٨)الحسن بو تنبيا، القراءة الادبية للقرآن في ضوء المنهج التاريخي، المطبعة الورقية الوطنية، مراكش، ٢٠١٠، ص٩٧

(٩) أقبال بن عبد الرحمن، الوحي القرني بين المفسرين والمستشرقين، دراسة تحليلية، ص ١٦٥

(١٠)إبراهيم عوض، دائرة المعارف الاسلاميّة الاستشراقية، اضاليل واباطيل، مكتبة البلد الامين، ١٩٩٨م، ص ١٦

(١١) محمد عبد الله الشرقاوي، الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام، دار البشير للثقافة والعلوم، مصر، ٢٠١٦م،ص ٢٠

(١٢) الحسن بو تنبيا، القراءة الادبية للقرآن في ضوء المنهج التاريخي، المطبعة الورقية الوطنية، مراكش، ٢٠١٠، ص٩٧

(١٣) يوسف وغليسي، مناهج النقد الادبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٧، ص١٦

(١٤) محمد قدور تاج، مرجع سابق، ص ١٧٥

(١٥) خالد القاسم، مناهج المستشرقين في دراسة الاسلام، ٢٠١٤/١٢/١٨، مقال استخرج من الرابط http://estshrac.blogspot.com بتاريخ ٢٠١٨/٠٦/١٨ الى الساعة ١٨.٠٦

(١٦)اجناس جولد تسيهر: العقيدة والشريعة، ترجمة يوسف مرسي وزميله، ط١، مصر، ١٩٤٨ ص١٢

(١٧) أبو حامد الغزالي، العقيدة والشريعة، مر جع سابق، ص٢٢

(١٨) ثيودور نولدكه، تاريخ القرآن، ترجمة جورج تامر، بيروت، ٢٠٠٤، ص٣

(١٩) هنري ماسيه، الاسلام، ترجمة بهيج شعبان، عويدات، بيروت، ١٩٦٠م، ص١٤١

(٢٠) دائرة المعارف الاسلامية، الجزء،١٢ ص٢٠١٦

(٢١) جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الاسلام، ترجمة يوسف مرسي وزميله، ط١، مصر، ١٩٤٨، ص٢٠

(٢٢) مانع بن حماد الجهني، الموسوعة الميسرة في الاديان والمذاهب والاحزاب المعاصرة، ج٢، ص٦٩٤

(٢٣) جميلة الشمري، المستشرقون ومناهجهم في دراسة علوم القرآن الكريم، ٢٠١٣/٠٦/٠٢، مقال استخرج من الرابط https://vb.tafsir.net/tafsir36527 بتاريخ ٢٠١٨/٠٦/١٨ على الساعة ٢١.٣٩

(٢٤) عابد الجابري، الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الاسلامية،ضمن مناهج المستشرقين، ص٣٢٥

(٢٥) محمد قدور تاج، مرجع سابق، ص١٨١

(٢٦) عبد الرشيد محمودي، أرسطو والإسلام، مقال استخرج من الرابط http://www.ahram.org.eg/News/ بتاريخ ٢٠١٨/٠٧/١٥ على الساعة ١٨.٣٧

(٢٧) عابد الجابري، مرجع سابق، ص٣١٣

(٢٨) محمود مهدي الإستنبولي، تحفة العروس، الطبعة السادسة، المكتب الإسلامي، ١٩٨٦، ص.١٩٨.

(٢٩) محمد قدور تاج، مرجع سابق، ص١٨٧

(٣٠) ساسي سالم الحاج، مرجع سابق، ص١٧١.

(٣١) محمد قدور تاج، مرجع سابق، ص١٧٩

(٣٢) رولان بارث، هسهسة اللّغة، ترجمة منذر عياشي، مركز الانماء الحضاري، حلب، ط١، ص ٨٣.

(٣٣) ادوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ص٣٦٣-٣٦٤-٣٦٦

(٣٤) مازن بن صلاح مطبقاتي، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الاسلامي، مكتبة فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٦هـ، ص٥٩٩

(٣٥) بلاشسر، القرآن، نزوله تدوينه ترجمته وتأثيره، ترجمة رضا سعادة، دار الكتب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٤، ص٧

(36)François Déroche, Le Coran, PUF. Que sais-je ? Paris, 3emme édition,2009, p3

(٣٧) محمد عبد الله الشرقاوي، مرجع سابق، ص١٤٥

(٣٨) ساسي سالم الحاج، مرجع سابق، ص٢٦١

(٣٩) محمد محمود زقزوق، مرجع سابق، ص١٠٠

(٤٠) ساسي سالم الحاج، مرجع سابق، ص ٢٧٩-٢٨٠

(٤١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلاميّة، ترجمة امين فارس، ططا١، بيروت، ١٩٤٨، ص٤٠

(٤٢) محمد فتحي عثمان، أضواء على التاريخ الإسلاميّ، ص٦٩

(٤٣) عبد الجبارناجي، الاستشراق في التأريخ، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت لبنان،٢٠١٣، ص٩٩

(٤٤)سعيد بن علي بن علي المغناوي، السيرة النبوية في الكتابات الفرنسية والانجليزية، العبيكان للنشر، ص١٥١-١٥٤

(٤٥)محمد محمود زقزوق، مرجع سابق، ص١٢٤

(٤٦) أخبار العالم العربي، السعودية، قرار مراجعة الحاديث الشريفة بهدف الكشف عن المفاهيم المكذوبة عن الرسول، مقال استخرج من الرابط https://arabic.rt.com بتاريخ ٢٠١٨/٠٧/١٥ على الساعة ٢١.٣٣

(٤٧) محمد عبد الله الشرقاوي، ص ٧٢

(٤٨) محمد عبد الله الشرقاوي، الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام، دار البشير للثقافة والعلوم، مصر، ٢٠١٦م، ص ١٦٩

(٤٩) راغب السرجاني، قصة اللّغة العربيّة، https://islamstory.com موقع قصة الاسلام.

(٥٠) شوقي ابو خليل، الاسقاط في مناهج المستشرقين، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م، ص١٦

(٥١) جميلة الشمري، مرجع سابق.

(٥٢) خالد القاسم، مناهج المستشرقين في دراسة الاسلام، ٢٠١٤/١٢/١٨، مقال استخرج من الرابط http://estshrac.blogspot.com بتاريخ ٢٠١٨/٠٦/١٨ لى الساعة ١٨.٠٦

(٥٣) محمد خليفة حسن، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الاسلامية، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٢٧

(٥٤) عبد العظيم الديب، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلاميّ/ قطر، كتاب الامة، عدد ٢٧، ص٧١

(٥٥) ساسي سالم الحاج، ص١٦٩

(٥٦) محمد خليفة حسن، مرجع سابق، ص١٤-١٥

(٥٧)عبد المنعم فؤاد، من افتراءات المسلمين على الأصول العقدية في الاسلام، مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ، ص٢٠٦

(٥٨) محمد قدور تاج، مرجع سابق، ص١٨٠

(٥٩)عبد الله محمد الامين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية، المعهد العالي للفكر الاسلامي، ١٩٩٧م، ص٣٥

(٦٠) محمد قدور تاج، ص١٨٢

(٦١)غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، بيروت، ١٣٩٩هـ، ص١٤٥،١٤١

(٦٢) مالك بن نبي، انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلاميّ الحديث، ط١، دار الارشاد للطباعة والتوزيع، بيروت، ١٩٦٩، ص ٨

(٦٣) ادوارد، سعيد مرجع سابق، ص ٣٧٢

(٦٤) فاروق فوزي، الاستشراق والتاريخ الاسلامي، الاهلية، الاردن، ١٩٩٨م، ص١٧٧

(٦٥) عماد الدين خليل، المستشرقون والسنة النبوية ضمن مناهج المستشرقين، المنظمة العربية للعلوم والثقافة، تونس، ١٩٨٥م.، ص١٧٤

(٦٦) مونجمري واط، محمد في مكة، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٢م، ص١٠٧

(٦٧) عبد الله محمد الامين، مرجع سابق، ص٤٩

(٦٨) مونجمري واط، مرجع سابق، ص٥٢

(٦٩) عبد الله محمد الامين، مرجع سابق، ص٤١

(٧٠) محمد محمود زقزوق، مرجع سابق، ص٩٥

(٧١) محمد محمود زقزوق، مرجع سابق، ص٢٩

(٧٢)ادوارد سعيد، مرجع سابق، ص٣١٩